اسم الدرس : تفسير سورة الرعد (٣) | الآيات [١١ : ١٦]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

كنا قد توقفنا في المجلس السابق عند قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾[الرعد ١١].

قبل أن نبدأ مجلس اليوم سنذكر تذكرة سريعة، تكلمنا في المجلس الأول: عن مقدمة لسورة الرعد، ثم المجلس الثاني: عن قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ المطلقة سواء على الخلق، أو سعة قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ، والعلم الشامل لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقد قلت من قبل أننا بحاجة إلى أخذ سورة الرعد كنموذج لكيفية الخطاب القرآني في تقرير العقائد، وبفضل الله تم إلقاء درس باسم "مميزات الخطاب القرآني"، وسوف يرفع بإذن الله قريبًا، هذا اللقاء يتكلم عن الخطاب القرآني عمومًا. لهذا نريد أن نتعامل مع سورة الرعد كنموذج تطبيقي لهذه المميزات؛ مثلاً هذه الآية تقرر عقيدة معينة، هذه الطريقة تتكرر في القرآن؛ لأن القرآن مثاني أي فيه معانٍ تتكرر.

بدأت سورة الرعد بقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾[الرعد ١]، فبدأت أول آية بإقرار أن ما معك هو الحق، ثم بعد ذلك أخبرت أن كثيرًا من الناس لا يؤمنون، ثم التفتت الآيات إلى موضوع آخر ـ أو كما قد تظن أنه موضوع آخر ـ بالكلام عن قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وتكلمنا أن بعض العلماء ربط أن هذه صفات مُنزل الكتاب: قدرة مطلقة، علم مطلق، وفي الوسط وضعت الآيات شبهة الكفار في إنكار البعث، هي محل العجب، فهم يتعجبون من إمكان البعث فجاءت الآيات وقلبت عليهم الدليل وجعلت كلامهم هو موطن التعجب ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾[الرعد ٥]. ثم بعد ذلك رجعت الآيات إلى التحدث عن علم الله الشامل.

وتوقفنا عند قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾[الرعد ١٠-١١] وتوقفنا عند كلمة ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ وقلنا أننا سنذكر الخلاف في هذه الآية.

وأريدك بعدما تقرأ في التفاسير أو تسمع درسًا في التفسير أن تعود أنت مرة أخرى للنص القرآني المباشر. فمثلا في سورة الرعد، حضرت فيها درس، وقرأت فيها مثلا لابن كثير أو السعدي أو قرأت فيها أي

تفسير، فبعد أن قرأت في التفاسير أو سمعت، ارجع واقرأ السورة بنفسك كي ترتبط بالنص ارتباطًا مباشرًا، اقرأ الآيات مرة ومرتين وثلاثة، اقرأ الآيات كثيرًا، استمع للآيات كثيرًا، صلّ بالآيات، اجعل بينك وبين هذه الآيات ارتباطًا مباشرًا. فالمفترض بهذه الدروس أو الكتب أن تنقلك إلى الارتباط المباشر مع الآية، فأحيانًا الاكتفاء بالقراءة أوالسماع فقط دون قراءة الآيات مرة أخرى قد يجعلك تتوه؛ فأحيانًا تنوع المواضيع وتشعبها قد تنسيك إلى ماذا كان يقودك السياق القرآنيِّ.

يقول الله ــسبحانه وتعالى ــ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[الرعد ١١]، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ على من تعود الهاء هنا؟ وما هي المعقبات؟ هناك اختلاف بين العلماء.

* هناك ملحوظة مهمة أريد أن تركزوا معي فيها، عندما تكون في الآية أكثر من كلمة فيها خلاف، فمثلاً الهاء في ﴿لَهُۥ﴾ فيها خلاف، و﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ فيها خلاف، و﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ فيها خلاف، أحيانًا يقول المفسر أن الهاء قد تعود إما على كذا أو كذا ومعقبات إما على كذا أو كذا، فحتى تفهم الآية بصورة متكاملة، **تحتاج أن تمسك القول لآخره**. فتنظر إلى أن المفسر الذي اختار "الهاء" بمعنى كذا، قد اختار أن معقبات بمعنى كذا فحتى تتوافق مع الهاء، اختار أن بأمر الله لها معنى ثالث حتى تكون الآية كلها بمعنى واحد. فأحيانًا التفاسير التي تتشعب وتذكر أقوالًا كثيرة قد تشتت الذهن، وقد لا تفهم إذا اختيرت الهاء بمعنى كذا، فماذا يكون معنى معقَّبات؟ لذا سنحاول إذا اخترنا قولًا، أن نسير معه إلى آخره.

الهاء في قول ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾:

قال بعض العلماء أنها تعود على آخر ما ذكر في قول الله ــسبحانه وتعالى ــ ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد ١٠]. ذلك الرجل الذي يستخفي بالليل أو ساربٌ بالنهار له معقبات، حوله معقبات، سنرى ما هي المعقبات. هل هذا الرجل الذي يستخفي في الليل أو سارب بالنهار قد يكون أي إنسان فينا أو أي إنسان عادي؟ نعم، فالآية تدل على شمول علم

الله، أو تدل كما قال ابن عباس في هذه الآية ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ "هو الذي يستخفي بريبة وشك ومعصية بالليل، ثم يحاول أن يظهر أمام الناس أنه لم يفعل شيئًا، يجهر أنه شريف أمام الناس" ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾. هذا الرجل له معقبات، إذًا الهاء هنا إذا عادت على ما قبلها ﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، فهي إما تعود على كل شخص فينا أو هذا الرجل تحديدًا.

ماذا تعني ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾؟ من أسباب اختلاف المفسرين أن أحيانًا يأتي وصف ولكن لا يذكر الموصوف، ماذا يعني هذا الكلام؟ مثلاً ﴿ٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾[العاديات ١] هذا وصف، هو شيء يعدو، فما الموصوف؟ ما الشيء الذي وصف بالعدو؟ هل الخيل؟ هل الإبل؟ فيظهر الخلاف، لماذا؟ لأن الآية ذكرت صفة ولم تذكر موصوفًا. مثال آخر، ﴿ٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾[النازعات ١] العلماء اختلفوا، لماذا؟ لأن هنا وصف لمخلوق ينزع، فهل الذي ينزع هو القوس عندما يشد أم الملائكة هي التي تنزع؟ فيظهر الخلاف وخاصة إذا اختلف السلف، فلو السلف أجمع على شيء، ينتهي الأمر حتى لو هذه الصفة لها أكثر من موصوف، يتم اختيار القول الذي أجمع عليه السلف.

فهنا كلمة ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي أشياء يعقب بعضها بعضًا، شيء أو مخلوق يكون موجودًا لفترة، ثم يذهب فيتسلم آخر مكانه، ثم يذهب ويتسلم آخر مكانه، هذه المنظومة كاملة تسمى معقبات.

فقالوا إما المعنى الأشهر هنا أنها الملائكة وهذا ورد في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- (أن هناك ملائكة يعقب بعضها بعضًا بالليل والنهار)[1] ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، وهذا قول جمهور المفسرين أن معقِّبات بمعنى ملائكة، وسنرى بعد قليل ما وظيفة هذه الملائكة.

وبعض العلماء قال أنها ليست الملائكة، وهذا قول مروي عن عكرمة وعن الضحاك تلاميذ ابن عباس وهو بسند ضعيف، أن المعقبات هي الحرس الذي يحرس الملوك ولهم ورديات بالنهار وبالليل فتنتهي وردية النهار ثم تأتي وردية الليل؛ فيظل الملك دائمًا حوله حرس. والذي اختار هذا القول قال أن

[1] [عن أبي هريرة]: يَتعاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ ومَلائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويَجْتَمِعُونَ في صَلاةِ العَصْرِ وصَلاةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُمْ، فَيَسْألُهُمْ وهو أعْلَمُ بهِمْ: كيفَ تَرَكْتُمْ عِبادِي؟ فيَقولونَ: تَرَكْناهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ، وأَتَيْناهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٤٨٦ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢) •

المقصود به الملك الظالم، فيكون ﴿مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ هو الملك الظالم الذي يفعل الأعمال والمعاصي بالليل ويحاول أن يظهر بالنهار على أنه شريف، هذا يضع حوله حرسًا لحمايته. هذا هو القول الثاني وهو اختيار الطبري برغم أنه ليس القول الأشهر.

﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾[الرعد ١١] إما الملائكة هي التي تحفظ أو الحرس، والهاء في ﴿لَهُۥ﴾ إما عائدة على الرجل أو على الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

* شرح الآية كاملة:

بعض أهل العلم قالوا ﴿لَهُۥ﴾ أي لله ـ سبحانه وتعالى ـ أو لهذا الرجل ملائكة حوله يحفظونه من أمر الله.

ما معنى ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾؟ بعضهم قال أنهم يحفظونه من المضار، وأن الإنسان لو تُرك لحظة بدون حفظ يهلك، والأصل أن الإنسان معرّض دائمًا للأخطار منها الجراثيم التي قد تصيبه، شياطين تحاول أن تفتك به، حُفرة يكاد أن يسقط فيها، سيارة تكاد أن تصدمه، الأصل أن الإنسان محاط بملايين من الأضرار. هناك كتاب مرعب كنت قد قرأته اسمه "لسْنا بمأمن" يتحدث عن إلى أي مدى يمكن لتغييرات بسيطة أن تؤدي إلى موت الإنسان، أو هلاك عام، أو جراثيم تنتشر، أو فيضانات تحدث. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يدبر الأمر وهو الذي ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر ٤١].

إذًا هنا يكون معنى الآية، لهذا الإنسان ـ سواء مستخف بالليل وسارب بالنهار ـ أو لله ملائكة تحفظ الإنسان من الأضرار ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد ١١] أي بأمر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ، أمرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحفظوا هذا الإنسان من هذه الأضرار، حتى إذا جاء الضر، وجاء أمر الله أن فلانًا سوف يصاب، فيأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملك أن يرفع الحفظ فيصاب الإنسان بالضر ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ ـ هذه في نهاية الآية ـ. فإذا اخترت هذا المعنى، فاختره بأكمله. لأنك ستجد أن المفسر يشرح الآية على بعضها ولا يقول أنني اخترت أن الهاء معناها كذا ومعقبات معناها كذا، ويحفظونه معناها كذا، ومن أمر الله معناها كذا.

إذًا **المعنى الأول** للآية أن للإنسان أو لله ملائكة، وأن كل إنسان حوله ملائكة تحفظه. فأنت دائمًا معرض لأضرار تحفظ منها وإذا أصابك ضر معين، فقد أذن الله لهذا الضر أن يصيبك وأمر الملائكة أن تبتعد وتترك هذا الضر ليصيبك (فما أصابكَ لم يكن ليخطئك وما أخطأكَ لم يكنْ ليصيبك)[٢]. ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي ملائكة ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر من الله، الله الذي أمر الملائكة، هذه الملائكة من الله أمرها أن تحفظك، ثم هذه الملائكة التي تحفظك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ لا يغير الله هذا الحفظ الذي حولك إلا إذا غيرت إلى المعاصي؛ فإذا غيرت إلى المعصية فلن يمنعك شيءٌ عن وصول الضُر إليك ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾.

ف ﴿لَهُۥ﴾ أي للإنسان أو لله ملائكه حولك، ملائكة تحفظك، تحفظك وأنت في الشارع من سيارة تصدمك، تسقط في حفرة، جراثيم تصيبك، شيطان يريد أن يحرقك، أيًا كانت الأضرار، كل هذه الأضرار تصرف عنك بسبب الملائكة، فإذا أذنبت ذنبا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ هنا يغير الله الحفظ، المعاملة تتغير لأنك تغيرت؛ فيرفع الملك عنك ويرفع الحفظ؛ فتصاب بالضر. وإذا أراد الله _سبحانه وتعالى_ أن يصيبك الضر، أيًا كان ما ستفعله، ومهما أخذت من أسباب، حتمًا سيصيبك الضر ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾[النساء ٧٨] ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾[الرعد ١١]

القول الثاني: أن ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي ملائكة أيضًا ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ أي يحفظون أعماله عليه، وليس يحفظونه لشيء حسن أنهم يحافظون عليه بل يحفظون أعماله عليه، أي أنك مراقب، معك ملائكة في كل مكان أنت تسير فيه تكتب. ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ هذه الملائكة بأمر من الله تكتب هذه الأمور، ثم إذا التقطت الملائكة أنك غيرت من الطاعة إلى المعصية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾

---

[٢] [عن زيد بن ثابت]: أتيت أُبَيَّ بنَ كعبٍ، فقلتُ له: وقَعَ في نفسي شيءٌ من القَدَرِ، فحدِّثني بشيءٍ، لعلَّ اللهَ أن يُذْهِبَه مِن قلبي. فقال: لو أن اللهَ عذَّب أهلَ سماواتِه، وأهلَ أرضِه، عذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رَحِمَهم كانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالِهم، ولو أنفقتَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا في سبيلِ اللهِ، ما قَبِلَه اللهُ منك حتى تُؤْمِنَ بالقَدَرِ، وتَعْلَمَ: أن ما أصابَك لم يَكُنْ لِيُخْطِئَك، وأن ما أخطأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَك، ولو مِتَّ على غيرِ هذا لدخلتَ النارَ. قال: ثم أتيتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيتُ حذيفةَ بنَ اليَمانِ، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيتُ زيدَ بنَ ثابتٍ، فحدَّثني عن النبيِّ ﷺ مثل ذلك.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ٤٦٩٩ • صحيح • أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧) •

يأمر الله _سبحانه وتعالى_ الملائكة بأن تصاب بضر بسبب ذنبك ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾. فهنا المعنى الثاني ليحفظونه أي يحفظون ويكتبون أعماله عليه.

* الآية مكونة من ثلاث جمل وكل قول يشرح العلاقة بين هذه الثلاث جمل: والجملة الأولى هي ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، والجملة الثانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾، والجملة الثالثة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾. ما علاقة الثلاث جمل ببعض؟ على حسب المعنى.

فقلنا أن المعنى الأول هو أن الملائكة تحفظك من الأضرار وهذه الملائكة تتركك إذا أنت غيرت من الطاعة إلى المعصية. والمعنى الثاني أن هذه الملائكة تكتب عليك الأعمال.

وفي **المعنى الثالث** قالوا هنا أن الحفظ ليس أنها تقف حولك وتحرسك فإذا جاء الضر منعته عنك، بل يَحفَظونك بالدعاء، المؤمن حوله الملائكة تدعو له وتستغفر له، فإذا فعلت المعاصي توقفت عن الاستغفار والدعاء؛ فيصيبك السوء.

– إذًا على قول ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ أنها الملائكة و﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ إما تحفظك من الأضرار التي تصيبك عن طريق صرفها عنك، أو تكتب عليك الأعمال، أو تحفظك بالدعاء والاستغفار لك. فإذا قلنا أن ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ أي ملائكة، تكون ل ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ لها ثلاثة أقوال.

– أما إذا قلنا أن ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ بمعنى الحرس _وهذا اختيار الإمام الطبري_ لهذا المستخف بالليل وسارب بالنهار يجعل من خوفه أن يصيبه الضر، فدائمًا كلما ازداد الإنسان ظلمًا، كلما ازداد خوفًا وفزعًا. سيدنا عمر بن الخطاب حينما كان يحكم الناس وكان عادلًا، كان آمنًا لذا كان ينام في الطريق تحت ظل شجرة دون أي خوف، لذا كلما ازداد الإنسان ظلمًا، كلما احتاج إلى كثير من الحرس؛ لأنه متخوف أن يصيبه أي سوء، وكلما كان الإنسان ظالمًا كلما ازداد جبنًا، فيضع هذا الظالم حوله حرس يحرسونه.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي حرس يعقب بعضه بعض: يعني هذا الملك الظالم لا يريد أن تمر عليه لحظة بدون حرس، معقبات أي يعقب بعضهم بعضًا. فمثلًا تنتهي وردية هذا في الساعة الثامنة، فيتسلمها منه الآخر في الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، دائمًا في قمة الرعب. ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يتوهم ذلك، يعتقد أن الله _سبحانه وتعالى_ لو أراد أن يصيبه بسوء؛ الحرس سوف يمنعوا عنه ذلك. كما يقول الله _سبحانه وتعالى_ ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾[الكهف ٣٥] أو كما يقول ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾[الحشر ٢]. لذلك هنا ذكرت كما قال الزمخشري على سبيل التهكم بهم، هل أنت معتقد أن هذه القصور أو الحرس التي تحيط بك أو الأسلحة تمنع عنك أمر الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد ١١] اعلم أنك إذا غيرت من العدل إلى الظلم أو غيرت من الإيمان إلى الشرك؛ فالله يغير معك معاملته وحينها إذا أراد بك سوءًا أيها الملك الظالم، لن ينفعك الحرس، لن تنفعك هذه المعقبات ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ وقلنا أن هذا اختيار الإمام الطبري أنها آية تخويف.

إذًا الهاء إما لله وإما للذي قبله _وهذا لا ينتج عنه خلاف في فهم الآية_ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ إما ملائكة أو حرس، إذا كانت ملائكة:

- فإما يحفظونه من الأضرار.
- أو يحفظون عليه أعماله.
- أو يحفظونه بالاستغفار والدعاء.

وإذا قلنا أن ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ بمعنى حرس، تكون معناها يحفظونه من الأضرار، و﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ معناها يظن أنها تمنعه من أمر الله.

القول الرابع وهو قول ضعيف لم يروى إلا عن ابن زيد أن ﴿لَهُۥ﴾ أي النبي ـصلى الله عليه وسلمـ. ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ الهاء هنا تعود على النبي ـصلى الله عليه وسلمـ، وهذا لم يرد إلا لواحد من السلف وجماهير السلف خالفوه، ثم بعض من المفسرين استنكر كيف يأتي ضمير يعود على شيء لم يذكر لأنه لا يوجد هنا ذكر للنبي ـصلى الله عليه وسلمـ.

وبعضهم ممّن يؤيدون هذا القول قال أنه قد جاء ذكر النبي ـصلى الله عليه وسلمـ. أين؟ في ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾[الرعد ٧] فالخطاب للنبي ـصلى الله عليه وسلمـ أي إنما أنت منذر وعليك الإنذار ولا تنشغل بمكرهم وكيدهم؛ فلك معقبات يحفظونك.

إذًا هناك من قال أن الهاء هنا تعود على النبي ـصلى الله عليه وسلمـ ولم يقل هذا القول إلا واحد من السلف، وجماهير المفسرين خالفوا هذا القول.

فجمهور المفسرين اختاروا أن ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾[الرعد ١١] معناها الملائكة التي تحفظ الإنسان إما بالدعاء أو من الأضرار أو بالكتابة. هذه هي الجملة الأولى.

– الجمله الثانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ هذه الجملة يعتبرونها من السنن في المعاملة، أن الله ـسبحانه وتعالىـ يعامل الناس معاملة معينة، فإذا أرادت الناس أن تتغير المعاملة سواء إلى الخير أو إلى الشر. فمثلًا إذا أردنا أن ننتصر، نريد أن يعاملنا ربنا معاملة مختلفة، يفتح لنا في الدعوة، ويفتح لنا في العلم، ويفتح لنا في النصر، ويفتح لنا في الجهاد، ويقهر الظالمين، وينصر المظلومين، نريد أن نتغير؛ إذًا لابد أن تغيروا ما بأنفسكم، لابد أن تبدأ أنت عملية التغيير حتى تنال هذه السنة.

لذلك قالوا أن الآية بألفاظها عامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من خير إلى شر إلا إذا عصوا، وهذا ما يناسب السياق أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من شر إلى خير إلا إذا أطاعوا. والآية تصلح للاثنين، فنحن نريد أن نتغير للأحسن، نريد أن يعاملنا الله معاملة للأفضل؛ إذًا لابد أن نتغير للأفضل. إذا عاملكم الله معاملة فيها عقاب، فأنتم من تسببتم في ذلك، أنتم من غيرتم، أنتم من بدلتم ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾[الإسراء ٨].

* قد يسأل سائل لماذا لم يحدث تغيير عام برغم أني أفعل كل ما بوسعي في الطاعة، وفي العلم، وأفعل ما بوسعي في الدعوة إلى الله؟ فأنا أعمل كل ما بوسعي كما هو يظن ذلك أنه يفعل كل ما بوسعه وزيادة، فلماذا لا يتغير المسلمين؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ [الرعد ١١] هذه نقطة مهمة جدًا كنت قد أشرت لها بالتفصيل في آخر درس من سورة فاطر أرجو أن تطلعوا عليه، أن هناك فارق بين سنن الله التي تعامل الفرد، وسنن الله التي تعامل المجموع، وهناك كتاب رائع تكلم في مقدمته في أول خمسين صفحة في هذه النقطة، اسم الكتاب "سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم" للشيخ حسن بن صالح الحميد. هناك فارق، فسنن الله للفرد شيء وسنن الله في المجموع شيء آخر. فإذا أردنا تغييرًا جماعيًا؛ لا يكون التغيير الفردي كافيًا، لابد أن نصل إلى مرحلة النصاب، وقد تحدثنا عن ذلك في آخر هود وهم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾[هود ١١٦]، فإذا لم يزداد أولوا البقية، لن يحدث تغيير، فكلما زاد عدد هؤلاء كلما دفعنا القدر بالقدر فيحدث تغيير جماعي.

لذلك تجد كثيرًا من الكتب تكلمت في هذه الآية، ولكنها حاولت أن تتكلم في مسألة فهم السنن الاجتماعية، وفهم السنن الكونية وخاصة أن هذا العلم بدأ ينشط في أواخر الخلافة العثمانية مثل كتابات محمد عبده، ورشيد رضا، مالك بن نبي، وتلميذه جودت سعيد كتاب باسم "حتى يغيروا ما بأنفسهم". فهذه القضية كانت تشغل أذهان كثير من الناس في هذه الفترة، لأن سقوط الخلافة كانت صدمة، فكل الناس كانت تفكر في كيف ينتصر المسلمون مرة أخرى بعد سقوط الخلافة؟ فبعضهم مثلاً كان يركز على الرجوع بالتمسك بالكتاب والسنة، وبعضهم قالوا ليس فقط التمسك بالكتاب والسنة ولكن هناك سنن أيضًا لابد أن نراعيها. وهذا من توفيق الله تعالى لهؤلاء؛ أن كل واحد منهم كان ينظر إلى شيء بحيث تكون النظرة في النهاية مكتملة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[الرعد ١١] لذا نحن كمجموعة نحتاج أن نغير ما بأنفسنا في البداية حتى يحدث التغيير، فيغير الله –سبحانه وتعالى– لنا الوضع، لكن نحن لا نريد أن نتغير بل نريد فقط اللهم أهلك الظالمين بالظالمين ونحن قاعدون بدون أن نتغير. فكيف سيحدث التغيير!! فإذا قلت لهم ابذلوا، قدموا، ضحوا كي يحدث التغيير، قالوا:لا، بل نحب فقط أن يحدث التغيير، وعندما

نتحدث عن المجهود ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة ٢٤]، ألستم متضررين من الوضع؟ نعم، نحن متضررون جدًا، إذًا فلتذهبوا وتقاتلوا؟ لا ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾[المائدة ٢٢]، نعم هل تريدون أن تقاتلوا أقزامًا؟ هذا طبيعي، فهم قد سيطروا لأنهم لديهم قوة، لذا كي تنافحهم يجب أن يكون بالقوة. وكي تنازعهم، يجب أن تنازعهم بالقوة، ولكنهم قالوا ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة ٢٤]. ولكن الأنصار لم يقولوا ذلك للنبي ــصلى الله عليه وسلمــ، ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾[الصف ١٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[الرعد ١١] فإذا حدث هذا التغيير وبدأنا نحن كمجموع أن نغير ما بأنفسنا؛ يحدث تغيير تدريجي.

وأيضًا من تصوراتنا الرومانسية عن التغيير أن التغيير لحظي؛ بمعنى أننا إذا قمنا كلنا الآن نصلي وندعي، فتنزل صاعقة فيحدث تغييرًا، لكن التغيير غالبًا ما يحدث بصورة تدريجية. الرسول ــصلى الله عليه وسلمــ ظل سنوات في مكة، وسنوات في المدينة، وسنوات في خلافة الصديق، ولم يحدث التغيير إلا في خلافة سيدنا عمر ومنتصف خلافة سيدنا عثمان وانتشرت الفتوحات في العالم الإسلامي؛ فالأمر يحتاج إلى سنوات من البذل والتضحية.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد ١١] وقد قلنا أن موقع هذه الآية على حسب المقصد، إذا كانت الآية تخاطب المؤمن أو تخاطب الكافر أو تخاطب الملك الظالم أو السلطان الظالم الذي يظن أن الحرس يمنعونه. وقد استغربت عندما ذكر ابن كثير هذه الآثار عن السلف وكأنه لم يرتضي هذا القول فقال أن المفسر كان يشبه حراسة الملائكة بحراسة هؤلاء للملوك ولكن كلام الطبري أوضح.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[فاطر ٢]. **إياك أن تعتقد أن هناك شيئًا يمنع عنك عذاب الله**، إياك أن تظن أنك لو اختبأت في مكان لم يرك فيه أحد وعصيت الله أو تجملت أمام الناس أن هذا يمنع عنك عذاب الله، إياك أن تظن أنك لو أخذت بكل الأسباب فهذا سيحميك. فمثلًا لو ذهب شخص في سفر فيه معصية؛ فيعتقد أنه عندما يضبط البنزين وزيت السيارة والخروج والطريق، يظن أنه لا يمكن أن يحدث له أي شيء، فمن أين سيأتي له الضر!!

الملك الظالم مثلاً، يغلقها من كل النواحي، فهناك جنود حراسة، واتفاقات خارجية وداخلية؛ فيعتقد أنه قد أغلق كل منفذ، لكن الله ــسبحانه وتعالىــ يقول لهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾[الحشر ٢] دائمًا الإنسان عنده ضعف ونقص، لذلك عندما قال الرجل ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾[الكهف ٣٥]، وكأنه يقول "كيف ستقع هذه الجنة؟" فهناك زرع ونخل ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾[الكهف ٣٢] حماية لهم من الرياح، ولدي مياه ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾[الكهف ٣٣] فمعى كل الأسباب، فكيف تقول لي أن جنتك يمكن أن تبيد؟ ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾[الكهف ٣٥]؛ فقال الله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾[الكهف ٤٢]وكيف كانت الإحاطة؟ لم يذكر لنا الله ــسبحانه وتعالىــ في سورة الكهف ذلك.**مهما أخذ الإنسان الاحتياطات؛ الله قادر على أن يصيبه من حيث لا يحتسب؛ إياك أن تغتر بالله** ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[الانفطار ٦].

أحيانًا أنت تعتقد أنك تفعل المعصية وحياتك مستمرة، لذا تعتقد أنك لن تقع؛ فأنا قد فعلت المعصية مرة والثانية والثالثة ولم تحدث لي أية أضرار. سيارتي سليمة وحياتي سليمة وعملي يسير بخير ولم يحدث لي أي مشكلة، فيعتقد أنها مرت ــبدون عقابــ، لا تعتقد أنها مرت، لا لم تمر؛ فلو أن الله أراد أن يعاقبك، لن تفلت منه.

أريد منك أن تقرأ هذه الآية القادمة وتستحضر السياق، إذا قلنا أن آية ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾[الرعد ١١] هي آية تخويف سواء كانت الملائكة تكتب عليك أعمالك أو في ذلك الملك الظالم الذي أراد أن يضع له حرسًا يمنعونه من أمر الله، فتخيل ملك ظالم أو شخص عاصي وأخذ بكل الأسباب والاحتياطات الأرضية أن عقوبة الله لا تصيبه وفجأة يقرأ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[الرعد ١٢-١٣]. مشهد سماوي مختلف عن مشهد الحرس الذي على الأرض، القرآن حقًا يقفز بك إلى نقلة بعيدة، أنت كنت مشغولًا بالأرض ومتخذًا للاحتياطات والحرس يمنعه ممّا يظن أنه سيصيبه من الأضرار، فيفاجأ أن الآية تتكلم عن مشهد في السماء، مشهد في السماء للطمع وللخوف.

وقد قلنا ذلك من مقدمة سورة الرعد، فاسم الرعد يجلب الطمع أن يأتي رزق أو الخوف أن تأتي مصيبة أو يأتي عقاب، فربنا _سبحانه وتعالى_ يقول ﴿هُوَ﴾ _سبحانه وتعالى_ وهذه هي البداية الثالثة في السورة، فالأولى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[الرعد ٢]، والثانية ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[الرعد ٨]، وهذه البداية الثالثة ولكنها بدأت بالضمير ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الرعد ١٢]، إذًا هو _سبحانه وتعالى_ الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا.

- هناك آيات كونية تحدث ولا نراها، وكلما يتقدم العلم نراها. كنت لتوّي أشاهد بعض الأفلام الوثائقية والأفلام الطبيعية التي ترى فيها أعماق المحيطات والبحار أو في الصحراء أو في الغابات التي لم يستطع الإنسان أن يصل إلى أراضيها بسبب كثافة الغابات، طائرات تصورها أو غواصات تنزل في أعماق المحيطات. إبداع!! خلق الله معجز وهذه آيات لا يراها الإنسان. الله _سبحانه وتعالى_ غنيٌ عن الناس.

- ولكن من رحمته أن جعل آيات يراها، فهذه الآية قد أراك الله إياها ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ هذه الآية واضحة للعيان مثل آيات الشمس والقمر، هناك آيات واضحة لكل الناس.

- وهناك آية تكون للمختص مثل الذي داخل الخلية، داخل جسم الإنسان، أشياء في الفلك، أشياء معقدة في باطن الأرض، هذه تكون للمتخصصين، للعلماء الدنيويين، فتبهر الناس فمنهم من يؤمن ومنهم من يجحد.

ولكن هناك أشياء لكل الناس ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. حقًا سبحان الله إذا رأيت مشهد البرق مع السماء المتسعة في الظلام مشهد مفزع، هذا البرق هذا الضوء الخاطف يخطف قلب الإنسان، يجعلك تنظر إليه اضطرارًا؛ وكأنها آية تقول لك: "انظر، تأمل، توقف".

﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ثم هذا البرق كما أنك تخشى منه الصاعقة التي قد تُميتُ إنسانًا ترجو منه مطرًا يغيث الناس. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بدأت الآية بالخير بمعنى أن وجود البرق حصل معه إنشاء السحاب الثقال، ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ الثقيل أي المحمل بالمطر. بعد ذلك ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وبعد ذلك التخويف جاء مُتأخرًا

على عكس طلبهم ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[الرعد ٦] هنا قدم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحسنة.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ ركز ﴿وَيُنشِئُ﴾..﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾، فالأحداث الكونية اليومية لا تحدث من جراء نفسها ولكنها بتدبير من الله. كما تكلمت في ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[الرحمن ٢٩] ـ سبحانه وتعالى ـ. قلت لكم من قبل أن بعض أغبياء الفلاسفة يدعون أن الكون هو شيء مغلق أنشئ في البداية ثم ترك يسير نفسه بنفسه، لا، بل الكون يحتاج إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كل لحظة، وهذا الكلام لا يعني أنه ليس هناك أسباب لها أثر، بل لها أثر لكن الله قادر على إبطالها وتحتاج إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وكان هذا توسط أهل السنة بين الأقوال المختلفة في مسألة الأسباب.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بعضهم قال خوفًا وطمعًا، خوفًا للمسافر، كما ورد عن بعض السلف أن المسافر يكون خائفًا من البرق والمطر فقد يكون هناك طينًا يصعب عليه السفر، وطمعًا بالنسبة للمقيم لأنه يتمنى وجود ماء حتى يستفيد منه في الزراعة. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ تخيل المشهد وأنت جالس تنظر إلى البرق والسحاب ثم فجأة سمعت صوت مدوي، هذا الصوت المرعب إنما هو التسبيح لمخلوق من مخلوقات الله، صوت الرعد المرعب ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[الرعد ١٣] سبحان الله. وقد ورد عن النبي –صلى الله عليه وسلم–،هو حديث مختلف في صحته وقد حسنه بعض أهل العلم (أن الرعد ملك من الملائكة هذا صوت ملك من الملائكة)[٣].

* أكرر مرة أخرى أنه لا يوجد تعارض بين اكتشافنا لهذا الرعد كيف يتم يعني دنيويًا وبين أن الله قدَّر ذلك، فهو الذي رتب ذلك؟ من الذي فعل ذلك؟ هو بترتيب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ. لذلك بعض الناس إذا أراد أن يخرج من أن الرعد ليس تسبيحًا حقيقيًا، فقال ويسبح سامع الرعد بحمده. ولذلك هناك آثار وإن كانت أيضًا أغلبها ضعيفة وهي أنه يسن عند سماع الرعد أن تقول "سبحان من سبح الرعد بحمده". فهنا قالوا ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أن تسبيح الرعد ليس حقيقيًا، فنقول وما المانع؟ ما المانع أن نترك التسبيح على حقيقته؟ بل هذا أكثر إيقاعًا في القلب؛ أن هذا الصوت المرعب للناس هذا مجرد جند من جنود الله سبحانه؛ ولكن هذا الجندي طائع فهي طاعة، الآن هو يقوم بطاعة.

[٣] [عن عبدالله بن عباس]: الرَّعدُ ملَكٌ من ملائكةِ اللهِ، مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، معه مَخاريقُ من نارٍ، يسوقُ بها السحابَ حيث شاء اللهُ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٣٥٥٣ • حسن • أخرجه الترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٠٢٤)، وأحمد(٢٤٨٣)

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ أريد منك _بعيدًا عن أي تفاصيل دخل فيها المفسرون_ أن تستحضر معي هذا المشهد، يمشي أحد في الصحراء، وفجأة أنوار تذهب وتأتي، فينظر إلى السماء فإذا ببرق ثم بعد ذلك بدأ السحاب يتجمع، ثم توجد غيوم، ثم أصوات مرعبة، ثم صاعقة أصابت شجرة أمامه فأحرقتها، تخيل هذا المشهد: تخيل أحدًا يمشي في ظلمات الليل في سفر في صحراء وحدث هذا، واكتملت الصورة لديك، ثم تخيل أن هناك شخص في وسط هذا المشهد يأتي ويقول لك من ربنا؟ ليس هناك إله للكون، ماذا فعل هذا الإله؟ ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ إذا قرأت هذا الكلام وعشت معه، ستضحك! ماذا تقول؟ ماذا تفعل؟ كيف تجادل؟ في هذا المشهد المهيب، كيف تجادل؟ وهو في وسط هذا المشهد المهيب، هو لا يستطيع أن يفعل شيئًا، ولا يمنع عن نفسه شيئا ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾.

حقًا سورة الرعد، أشعر فيها أنها هجومًا وليست دفاعًا. فهناك سور تكون فيها اطمئنان؛ تطمئن المؤمنين. ولكن سورة الرعد أنا أشعر فيها من البداية أن هذا هو الحق وهناك أناس لن تؤمن به ومن لن يؤمن، سوف يعاقب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾[الرعد ٥]، وطلبوا آية فتجاهلهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾[الرعد ٧] واستمرار. أشعر وكأنني عندما أقرأ سورة الرعد أنني قد امتطيت جوادًا يجري ولا يقف، وفضح لهم وهجوم، حقًا أشعر أن سورة الرعد صراعًا بين الحق والباطل كما سيأتي هذا المثل إن شاء الله كي يصف هذا الصراع بتفاصيله.

تلاحظ أنه كما تم وضعهم في آخر الصفحة الأولى في مشهد مضحك ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾[الرعد ٥] أيضًا في آخر الصفحة الثانية تم وضعهم في مشهد مضحك ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الرعد ١٣] هل أنت متخيل كيف أن في هذه السماوات ما من موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك قائم أو ساجد أو راكع يسبح بحمد الله ثم هذه الأنوار والبروق، وهذه أصوات الرعد والملائكة خائفة، وهذا الإنسان الضعيف الحقير يُجادل في الله ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[الرعد ١٣].

﴿ٱلۡمِحَالِ﴾ هنا قالوا إما بمعنى المكر أو القوة. وبعضهم جمع أي يمكر بهم فيأخذهم بقوة، فقد اختلفوا هل "الميم" التي في البداية في كلمة ﴿ٱلۡمِحَالِ﴾ ميم أصلية في الكلام بمعنى أن أصل الفعل محل أم أن الميم

زائدة وأصلها حال يحتال؟ بمعنى هل أصل هذه الكلمة إذا أردنا وزنها هل هذه الميم أصلية فتكون فعال أم أن الميم زائدة على الفعل فتكون مفعل؟

أيًا كان، المهم أنها بمعنى المكر أو القوة، والله _سبحانه وتعالى_ قادر أن يمكر بهم، هذا الذي يقف ويجادل في هذا المشهد المهيب، وقادر على أن يرسل عليه الصاعقة ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[الرعد ١٣] كما في الآية السابقة، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[الرعد ١١]. كأن الصاعقة هي نموذج لهذا السوء الذي إذا أراد الله أن يصيب به أحدًا، لن يفلت من عذاب الله، مشهد صاعقة تأتي من السماء وتصيب رأس إنسان مشهد مهيب.

لذلك بعض العلماء ذكروا هنا آثارًا طويلة أن هناك أناس ذهبوا ليجادلوا النبي _صلى الله عليه وسلم_ كانوا يستهزئون ويقولون: صف لنا ربك ومن هو الله؟؛ (وأن النبيّ -صَلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلمَ- أرسل بعض الصحابة يدعوا أناسًا فقال: الصحابي للنبي _صلى الله عليه وسلم_: هو أعْتَى مِّنْ ذَلكَ، قالَ: "اذْهَبْ إلَيْهِ"، فذهب الصحابي ودعاه فرجع إلى النبي _صلى الله عليها وسلم_ فَقَالَ : ألم أقل لك يا رسول الله أنه أعتى من ذلك ،وظل يستهزئ فأرسل اللَّه صاعقة فأصابته)[٤] جاء في حديث طويل سواء عامر ابن الطفيل أو أربد. وسبب النزول هذا، وإن كان لا يصح سندًا هو سبب أن بعض المفسرين قالوا أن هذه السورة مدنية أو هذه الآية تحديدًا مدنية؛ لأن هذا الحدث إن صح فهو حدث في المدينة _مدينة النبي عليه الصلاة والسلام_. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ﴾ _سبحانه وتعالى_ ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[الرعد ١٣].

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[الرعد ١٤]

[٤] [عن أنس بن مالك]: بعَث رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم رجلًا من أصحابِه إلى رجلٍ من عُظَماءِ الجاهليةِ يَدعوه إلى اللهِ تبارَك تعالى فقال: أيش ربُّك الذي تدْعوني إليه من حديدٍ هو؟ من نُحاسٍ هو؟ من فِضَّةٍ هو؟ من ذهَبٍ هو؟ فأتى النبيَّ صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم فأخبَره فأعاده النبيُّ صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم الثانيةَ فقال مِثلَ ذلك فأرسَله إليه الثالثةَ فقال مِثلَ ذلك فأتى النبيَّ صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم فأخبَره فأرسَل اللهُ تبارَك وتعالى عليه صاعِقَةً فأحرَقَتْه فقال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم: إنَّ اللهَ تبارَك وتعالى قد أرسَل على صاحِبِك صاعقةً فأحرَقَتْه. فنزلَتْ هذه الآيةُ: {وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ}. الوادعي (ت ١٤٢٢)، صحيح أسباب النزول ١٣٧ • يرتقي إلى الحجية •

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ أوسع شخص رأيته قد شرح معنى ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ هو الإمام الشوكاني في فتح القدير؛ لأنها قد تكون غير مستوعبة. ﴿لَهُۥ﴾ أي لله _سبحانه وتعالى_ دعوة الحق، فحينما يدعوك الله لعبادته، هذه دعوة حق. أما حينما يدعوك ظالم أو صنم لعبادته فهذه دعوة باطلة وهذه أحد معاني له دعوة الحق. دعاؤه لك حق ودعاؤك له حق، فعندما تدعو الله، فأنت تتجه إلى الحق، لكن الآخرين حينما يدعون الأصنام فهم يدعون باطلًا وضلالًا. دعاؤه لك ودعاؤك له هذا حق، وأي دعاء آخر، توجهك القلبي والفكري والعقلي لغير الله ضلال، أن يطلب منك شخص عبادته فهذا ضلال.

وهذا معنى ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ أن الله _سبحانه وتعالى_ قد دعاك لتعبده وأنزل دعوة الحق وهي لا إله إلا الله فأنت تتوجه إليه بالعبادة وهذا من الدعاء، وتتوجه إليه بالدعاء. كل هذه الأمور الأربعة التي ذكرتها هي حق وتثمر حقًا في حياتك، ما سوى ذلك أن تتوجه بعقلك، وبقلبك، وبمشاعرك لغير الله؛ أنت في ضلال لم تحصل على شيء، لذلك تكملة الآية توضح معنى ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ له أي لله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الناس التي توجهت بالدعوة لغير الحق، توجهت للصنم أو طُلب منها أن تعبد هذا الصنم، فهذه دعوة الباطل، فإذا طُلب منا أن نتوجه بقلوبنا وعقولنا ومشاعرنا لغير الله، هذه دعوة باطل، أن نتحاكم إلى غير شرع الله، هذه دعوة باطلة، أن تلجأ إلى غير الله وأن تستغيث بقبر أو بصنم أو بحجر، هذه دعوة باطل، أما عكس وخلاف كل هذا هو دعوة الحق. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ لذلك أقول لكم أن سورة الرعد مختلفة، فقد كان يمكن أن يقول [الله له دعوة الحق وما سواه باطل]. ولكن انظر إلى هذا المثل الذي جاء هنا أيضًا ساخرًا جاء ليسخر منهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ مشهد المشركين وهم يقفون أمام الأصنام في قمة الخشوع والتضرع يطلبون منهم أو طلب منهم أن يعبدوا الإصنام، سواء كانت الدعوة وجهت إليهم أو هم الذين يوجهونها للصنم.﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ النكرة هنا في سياق النفي أقل شيء، العموم، لا يفعل له أي شيء، لا يستطيع أن يحل له أية مشكلة، ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا﴾ ﴿إِلَّا﴾ تعطيك أملًا، بمعنى هل يمكن للصنم أن يحل له شيئًا؟

﴿إِلَّا﴾ وإن كان هنا يسموه استثناء منقطع أي ولكن، سواء مشهد سماعه للآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا﴾ ، هنا يمكن أن تتخيل أن بإمكان الأصنام أن تنفعه ولكن بشيء

بسيط، ما هو القدر الذي يمكن أن تنفع به؟ ﴿إِلَّا﴾ جاءت بمثل؛ وهنا في القرآن الانتقال من كلام الحقائق إلى الأمثال والرجوع من الأمثال إلى الحقائق وكما سيأتي معنا إن شاء الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ مشهد أناس يقفون أمام الأصنام ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[الرعد ١٤].

ماذا يقصد بـ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾؟ هناك ما يقرب من أربعة أو خمسة أقوال جميعها تصب في نفس المعنى، أنه لن يستفيد من الماء. قال بعضهم أن منظر إنسان عطشان في قمة العطش، وذهب ليقف أمام الماء، وبينه وبين الماء مسافة فمد يده إلى الماء ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ وهو يطلب من الماء أن يصل إلى فيه، فهل سيصل الماء إلى فيه؟ وهذا هو المشهد بالضبط، وهنا مشهد ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ في حين أن من ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ المشهد الآخر باسط كفيه إلى الله، يدعو الله.

﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ مفهوم أنه ذهب إلى الماء ليشرب، لكن ليبلغ فاهُ، كلمة فاه هنا ذكرت لاستحضار مشهد الفم العطشان، هذا الفم المتشقق الذي ينتظر الماء ولن يصل إليه شيء، يبحث عن قطرة ماء ولم يصل إلى شيء .

﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾:

القول الأول: يمد يده إلى الماء ولكن لا يصل إليه الماء.

القول الثاني: وقف إلى الماء ووضع يده في الماء، ولكن يده مبسوطة بمعنى أنه أدخل يده في الماء، ولكن لا يستطيع أن يقبض أو يثني يديه ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ فتخيل أن يده مفرودة فلا يستطيع أن يشرب.

القول الثالث: بسط كفاه إلى الماء ووصل إلى الماء ثم قبض على الماء وأخرج يده فلم يجد فيها شيء. لذلك يقال من تعبيرات العرب "القابض على الماء" هو الذي لم يمسك شيئًا، كما يقال "مسك الهواء"، فيقول مثلًا: " لم أخرج من الكلام معه إلا كالقابض على الماء" بمعنى أنه لم يخرج منه بشيء. ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ ثم قبض على الماء فلم يحصل على شيء، كل هذا ورد عن السلف.

القول الأخير هو: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ يقف أمام الماء وخياله بعيدًا في الماء ويريد أن يصل ويعتقد أنه لما يصل بيده إلى فمه الذي في خياله في الماء، سيستطيع أن يسقي نفسه وهو متوهم، فهو متخيل أنها حقيقة وهذا يدل على توهمات أهل الشرك، أنه يعتقد أن الصنم ينفعه أو أن الفكرة هذه تنفعه أو أن هذا التشريع الأرضي ينفعه، هذا توهم لن ينفعك بشيء.

الخلاصة أن الآية شبهت شخص يبذل مجهودًا بلا فائدة ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾. كان يمكن للمثل أن ينتهي هنا وتفهم أنه لا يحدث شيء، ولكن انظر إلى التأكيد القطعي لك، _كما قلت لك أنها سورة هجوم_ ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ الباء هنا تسمى باء الالتصاق، لن يقرب من وصول الماء فضلاً على أن يصل إليه، لن يستفيد شيئًا، تخيل أنك ذاهب لتخاطب المشرك وتقول له أعمالك في قمة الضلال وفي قمة الضياع ولن تحصل على شيء وكلامك عجب وأنت موضع سخرية، سورة في قمة الهجوم.

﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ وكل مجهودك ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ الضلال حتى تفهم ما المقصود بكلمة ضلال، عندما تأتي ببرميل ماء كبير وتضع فيه قليل من اللبن وتقلب ثم تنظر فلا ترى اللبن، تقول ضل اللبن في الماء أي اختفى، ضاع، كالذي يضل في الصحراء، تائه لا تستطيع أن تأتي به، فالضلال هكذا، الذي فقد الطريق، هذا الذي يترك طريق الله _والعياذ بالله_.

وعندما تستعيذ بالله من الضلال، استحضر هذا المعنى، تخاف أن تتخطف من الطريق إلى الله _سبحانه وتعالى_فتتيه.﴿حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا﴾[الأنعام ٧١] ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[الحج ٣١] هذا الذي يترك طريق الله _والعياذ بالله_. فعندما تستعيذ بالله من الضلال، استحضر هذا المعنى.

فيقول الله –عز وجل– كل هذا المجهود ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[الرعد ١٣] حقًا ننبهر بالقرآن. فقد بدأت السورة بإنكارهم، ثم الله رفع السموات وقدرة الله المطلقة، ثم علم الله المطلق، وهناك أناس تحاول أن تختبئ، وتضع حرس وهذا الحرس لا يستطيع أن ينفعها بشيء، ثم مشهد الرعد والبرق

المهيب، ومشهد المشرك الضائع ومازال مُصر على العناد، فتلتفت الآيات عنه وتقول له فإن أعرضت أنت عن السجود ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعا وَكَرْها وَظِلَٰلُهُم﴾[الرعد ١٥] فإن أنت رفضت السجود أيها الكافر فظلك يسجد لله. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيات تقع موقعها وهذا أحد أنواع التناسق ما بين الآيات والارتباط النفسي، وكأنك كنت تنتظر هذه الكلمة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ جاءت بصيغة المضارع لأنهم معرضون يجادلون بالإعراض، هنا يسجد بالمضارع، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الملائكة، ﴿وَٱلْأَرْضِ طَوْعا وَكَرْها﴾ العلماء اختلفوا قالوا هل المقصود ب﴿طَوْعا وَكَرْها﴾ هل يسجد بمعنى السجود الحقيقي؟ وهو سجود الصلاة أم يسجد بمعنى يذعن ويذل لله _سبحانه وتعالى_؟

ما السبب وراء هذا القول؟ السبب هو العموم فهناك أناس لا تسجد مثل المشركين، وكلمة ﴿كَرْها﴾ قالوا لو المقصد السجود الحقيقي، كيف يسجد كرها؟

* فلذلك بعضهم قال لو تركناها على العموم، كل المخلوقات، ونترك كلمة ﴿كَرْها﴾ على حقيقتها، إذًا سنختار أن السجود مجازي ومعناه الإذعان والإذلال، وأن الكافر يمر بلحظات إذلال، تمر عليه أقدار يذله الله _سبحانه وتعالى_ ويعلم أن هناك قوة خارجه تقهره بمرض، يقهر بموت، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام ١٨] أي ما من بشر إلا ويمر بلحظات القهر، بل النوم اليومي يعتبر لحظات قهر؛ أريد أن أستيقظ من النوم، لن تقدر. ولكنه عقلي أنا وعيني أنا التي أفتحها؟!لا لن تستطيع ذلك. تقهر بالنوم، تقهر بدخولك لقضاء حاجتك، تقهر بذلك، لأنك بشر وستظل بشرًا.فقالوا ما من إنسان إلا ويمر بهذه اللحظات، لذا نترك السجود هنا للمعنى العام.

* وبعضهم قال لا السجود هنا بمعنى السجود الحقيقي _فهنا أخرج المشركين من السجود_ و﴿مَن﴾ بمعنى الغالب، وقالوا ﴿وَكَرْها﴾ هي سجود المنافق أو الذي دخل الإسلام منافقًا، فكان يسجد كرهًا فحسن إسلامه، وهذا اختيار الإمام قتادة، الذي دخل الإسلام خوفا من السيف، فكان يسجد كرهًا، ثم حسن إسلامه أو ظل منافقًا.

الخلاصة، مع كلمة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ والظلال هنا بمعنى إما السجود الحقيقي. أكثر شخص تكلم عن سجود الظلال لكن ليس بالمعنى الحقيقي وإنما بالمعنى المجازي وحاول أن يبدع في هذا الاختيار هو ابن عاشور وقال مشهد أن الظل يظل على الأرض، وكيف أن الله جعل الشمس تكون بصورة معينة، وإذا كانت هناك شمسان أمام بعضهما البعض لم يكن ليحدث ذلك بصورة معينة، وأن الظل كي يحدث يجب أن تدور الأرض بصورة معينة، مع وجود الشمس في مكان معين، وبقاؤه على الأرض وأنت تمشي وظلك على الأرض والتذكير بهذه الأرض التي سوف تدفن فيها، وأنك لابد أن تسجد. فيوجد من المعاصرين من أبدعوا سواء ابن عاشور أطال فيها النفس أو أشار للظلال إشارة سريعة وتفسير القرآن لعبدالكريم الخطيب؛ المعاصرين حاولوا أن يستفيضوا في هذا المعنى.

أما بعضهم فقد قال أن الظلال تسجد بكيفية لا نعلمها وهو سجود حقيقي مثل قول الله –سبحانه وتعالى– ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء ٤٤]، فنحن لا نفقه كيفية سجود الظلال.

ثم بدأ هنا هجومًا مباشر، في البداية كان يوضح ويوضح وبعد ذلك يأتي قوله ﴿قُلْ﴾في خمسة مواضع ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[الرعد ١٦]. طلقات متتالية في آية واحدة قل.. قل.. قل.. وكأنك لا تنتظر منهم إجابة، بدأ هجومًا مباشرًا في الدعوة بإقرار بعقيدتك بعد ما كذبوا في البداية. أنت أعرضت عن تكذيبهم، وذكرت الحجج فاستمروا في التكذيب، فأعرضت عن تكذيبهم، وذكرت الحجج، فاستمروا في المجادلة فأعرضت عن جدالهم وذكرت الحجج، فاستمروا في الإعراض، فيأتي بإطلاق الطلقات المستمرة "قل...قل....قل...قل...قل...". مثلما حدث في أواخر سورة سبأ هناك ست طلقات متتاليات "قل..قل..قل.." متواصل، وأيضًا في نهاية سورة الملك. هناك سور تظهر وتتفنن في إظهار العقائد وتوضيحها، فعندما يستمرون في الإعراض، تأتي كلمات "قل"متتالية.

* لذلك من أكثر السور التي تفننت في عرض العقيدة، هي أكثر سورة جاءت فيها كلمة "قل" وهي سورة الأنعام فجاءت فيها كلمة "قل" أكثر من أربعين مرة.

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الرعد ١٦]، الرب: هو الذي يربي الشيء، والشيء يحتاج إليه حتى يوجد ثم ينمو ثم يستمر، بعدما تكلمت عن السماوات والأرض والظلال؛ منْ الذي فعل كل هذا؟ ليس فقط من خلقها ولكن منْ خلقها ودبرها، ويسر لها أمرها، وأخرج منها المرعى وركبها وجعل هذا السواد منْ الذي فعل كل هذا؟ السماوات تحتاج إلى رب ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، طالما وضحت أكثر من مرة، لا تنتظر الإجابة، بل قل الله.

لذلك بعض المفسرين اختلفوا فيما إن كانت هذه إجابتهم فلما قالوا الله، أنت أقررتهم مثلما جاء في ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٥] ، أم أنك في هذه السورة تحديدًا لم تنتظر الإجابة؟ أنا أميل إلى أنه مع سياق السورة والهجوم، أن النبي ـصلى الله عليه وسلمـ هنا لم ينتظر الإجابة.﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾[الرعد ١٦] لن تنتظر منهم إجابة، لماذا الإجابة جاءت بهذه الطريقة؟ لأن السياق وضح ذلك ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾[الرعد ٢]، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾[الرعد ٤]، ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾[الرعد ٨]، ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾[الرعد ١٣] هذا التفنن في عرض الآيات، لا تنتظر منه إجابة ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾[الرعد ١٦] أفاتَّخذتُم بمعنى أنه بعد كل هذا الشرح لكم تبحثون عن غيره؟ تبحثون عن إله غيره؟ مثلما قال سيدنا إبراهيم وهو لا يصدق ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الصافات ٨٧] لماذا تبحثون عن غيره؟ أوجدتم فيه نقص؟ حاشاه ـسبحانه وتعالىـ حتى تبحثوا عن غيره، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾[مريم ٦٥] هل تعلم له مُساميا؟ كما جاء في تعبير ابن عاشور، لماذا تذهب إلى غيره؟ ما السبب الذي جعلك تتجه لغير الله؟ سواء كمشرك تتجه لصنم أو لتشريع أرضي أو بقلبك تتجه لغير الله، لماذا؟ ماذا فعل لك الذي اتجهت إليه حتى تتجه إليه؟ وهذا الذي اتجهت إليه هل خلق كخلق الله فاشتبه الخلقُ عليك؟ منْ غير الله يخلقك ويرزقك، دبر لك أمورك؟ لماذا تذهب لغيره؟ لماذا؟

[٥] ذكرت هذه الآية في موضعين [لقمان ٢٥]، [الزمر ٣٨].

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾[الرعد ١٦] لم يقل لا يملكون لكم، بل قال لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، إذا فعلوا هذا قل له أنت أعمى، الذي لا يرى الآيات التي ذكرت في هذه السورة وفي غيرها هو أعمى ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أي المشرك، ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي المؤمن، والحق والباطل، قل ﴿هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ هذا أعمى يسير في ظلمات؛ الذي يتخذ أولياءً من دون الله؛ أعمى يسير في الظلمات، أما المؤمن فهو بصير يسير في النور .

﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾

من المواقف المضحكة، دوكنز كان في لقاء وحوصر في سؤال... منْ الذي خلق الكون؟ ومنْ الذي أوجده؟ فأخذ يبحث عن إجابة وفي النهاية يتهرب من الجواب، ثم قال لربما جاءت مخلوقات فضائية خلقت الكون. لا يريد أن يعترف، ولا يريد أن يذل للذي خلقه، لماذا؟ طبعًا لتبعات الإقرار، مثلما قال المشركين "لو كانت كلمة لقلناها" لأنهم يعلمون معنى "لا اله الا الله".

﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا تنتظر بل ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وهو ــسبحانه وتعالىــ واحد أحد قهّار ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ كما تحدثنا منذ قليل عن مشهد القهر، ومشهد الخوف من الرعد والصواعق، وبما أنه واحد إذًا فقد قهر كل مخلوق، هو الواحد ودائمًا ما يرتبط هذين الاسمين ببعضهما البعض...الواحد القهار فيها صيغة مبالغة فهو قهر كل من نازعه ــسبحانه وتعالىــ لا يُنازع في صفاته ــسبحانه وتعالىــ، لذلك هو العزيز، ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ هذه الآية فيها هجوم دعوي فيها ﴿قُلۡ﴾ التي جاءت خمس مرات تقريبًا من الخطاب المباشر، وأنت لا تنتظر الإجابة، وهذا أسلوب خطابي مهم أن يُستعمل بعد أن وضحت الآيات وبينتها، أن تستعمل هذا الأسلوب أمر جيد لأنك تقوم الآن بنوع من أنواع الحصار له.

منْ فعل كذا؟ الله، من خلق كذا؟ الله، هل تبحث عن إله غيره؟ هل اشتبه الخلق؟ الله خالق كل شيء، بعقيدة في النهاية، **هو الواحد القهار**.